الشهيد العظيم : الدكتور عبد العزيز الرنتيسي

بقلم عصام العطار

بعدَ أقلَّ من شهرٍ واحد من اغتيالِ الشهيدِ العظيم الشيخ أحمد ياسين مؤسِّسِ حركةِ حماس وزعيمِها الروحيّ ، يُغْتال هذا اليوم : السبت السابع عشر من نيسان/أبريل خليفتُه وزعيمُ الحركة من بعده في غزة : الـــشهيدُ العظـــيم الدكتور عبد العزيز الرنتيسي ، وتضعُ صواريخُ الأباتشي -في ظَنِّها- خاتمةً لحياتهِ الشخصيةِ الرائعة ، ولملحمةِ حياتـــهِ التي دارتْ بينَ الظلمِ والعُدوان ، ومقاومةِ الظلمِ والعدوان ؛ وكانت جُزْءاً لا يتجزّأ من مَلْحَمَةِ شعبهِ وأرضهِ الكبرى ، وتجسيماً لجوهرِ هذا الصراعِ التاريخيّ بين الحقّ والباطل ، والقوةِ الماديةِ المسلّحةِ الغاشمة ، والقوّةِ المعنويةِ المجرّدةِ مـــن السلاح

طُرِدَ عبد العزيز الرنتيسي من بيته وأرضه وقريته وهو طفل رضيع ، وتشرّد مع إخوته وأخواته وأسرته ، وتجرعَ معهم ، ما تجرّعَتْهُ كلُّ أسرةٍ فلسطينيةٍ مُهَجَّرَةٍ من مرارةِ التشرُّدِ والبؤس ، وكابدَ أشقَّ الأعمال ، وكـــافحَ أصـــعبَ كِفاح ، لإعالةِ أسرته ، وشقِّ طريقِه في الحياة

وطارده العدوانُ الإسرائيليّ ، كما طارد مئاتِ ألوفٍ سواه من المشرّدين واللاجئين ، يحتلُّ البلدَ بعـــدَ البلـــد ، ويغتصبُ الأرضَ بعدَ الأرض ويُضيفُ الظلمَ إلى الظلم ، والقهرَ إلى القهر

وعرفَ عبدُ العزيز الظلمَ والقهرَ طفلاً وصبيّاً ناشئاً

وعرفَ الظلمَ والقهرَ غلاماً وشابّاً واعيا

عرفَ الظلمَ والقهرَ عاملاً كادحاً ، وعرفه طالباً ومتخرِّجاً ، وعرفه طبيباً وأستاذاً ، على الـــصعيدِ المعاشـــيّ ، والصعيدِ الاجتماعيّ ، والصعيدِ الثقافيّ ، والصعيدِ السياسيّ ..

وسِيقَ إلى الـــسجنِ أكثـــرَ مـــن مـــرّة : ســـجنِ الأعـــداءِ وســـجنِ الأصـــدقاء ، ووضـــعته الـــسلطاتُ الإسرائيلية مع عدد كبير من الفلسطينيين الأحرار خارجَ الحدودِ في ظروفٍ من أقسى الظروف ، ثم أودعته الـــسجنَ عندما اضطرّتْ إلى السماحِ للمبعدين بالعودةِ من المنفى

وحاولوا اغتيالَه أكثرَ من مرّة ، وأصابوا بعضَ أحبابِه وأهلِ بيته

وملأوا الدنيا حولَه بالتهديدِ والوعيدِ والإرهاب

كان رحمه الله عظيماً في إيمانه بربّه ودينه ، وعدالةِ قضيته ، فلم يُخَامِرْهُ قطُّ شكّ

كان رحمه الله عظيماً في شجاعته وإرادته ، فلم تَسُدَّ عليه طريقَه عَقَبةٌ ، ولم يَنْكِلْ عن واجب مهما كانت المصاعب والمخاطر

وكان يعلم أنه يتقدّم خطوةً أُخرى إلى الموت إذ يتقدّم لحملِ الرايةِ بعدَ الشيخ أحمد ياسين ؛ ولكنه كان مؤمناً بقضاءِ اللهِ وقدرِه ، وأنّه لا يصيبُه إلاّ ما كتبه الله له ، مُفَوِّضاً أمرَه لله على كلِّ حال ، مستعدّاً للشهادةِ إنْ كتبَ اللهُ له الشهادة ، وسعيداً كلَّ السعادةِ بلقاءِ اللهِ مجاهداً في سبيلِ الله

وتضربُه هذا اليوم السبت السابع عشر من نيسان/أبريل طائرة الأباتشي بصاروخها القاتل ، فتحرق سيارتَه وتقتلُ مَنْ فيها ، وتضعُ خاتمةً لملحمةِ جهادِه الشخصيّة ، التي امتدّتْ وقائعُها على امتدادِ حياتِهِ زهاءَ سِتٍّ وخمسينَ سنة

بدأتْ هذه الملحمةُ سنة ١٩٤٨م عندما طُرِدَ من بيته وأرضه ، وشُرِّد وأسرتَه وهو طفل رضيع

وانتهت هذه الملحمةُ في ١٧ نيسان ٢٠٠٤م بطائرة الأباتشي وصاروخها المجرم

بدأت هذه الملحمةُ بأَظْلَمِ ظُلْم ، وانتهت بأظلمِ ظُلْم

ومع ذلك فالطفلُ الرضيعُ المشرّدُ المظلوم : عبدُ العزيز الرنتيسي ، والكهلُ القتيلُ الشهيدُ المقاومُ للظلم ، المطالبُ بالحقِّ والعدل : عبدُ العزيز الرنتيسي « إرهابي !! » « مجرم !! » في نظر الولايات المتحدة الأمريكية وبعضِ أتباعها في الشرق والغرب !! ، و « آرييل شارون » المحتلُّ المغتصبُ السفاحُ الذي شرّده وسجنه وعذّبه وقتلَه رجلُ سلام .. وضحيةٌ بريئة مسكينة ، يدافع عن نفسه بطائراته ومروحيّاته ، وصواريخه وقنابله ، ومن حقه أن يدافع عن نفسه ، فيهدم البيوت ، ويقتل النساء والأطفال ، ويغتال من يشاء دون حساب !!

أين العقل ؟! أين المنطق ؟!

أين الضمير ؟! أين الوجدان ؟!

أين العدل ؟! أين الإنصاف ؟!

أين الإنسانيةُ وحقوقُ الإنسان ؟!

سافر « شارون » إلى الولايات المتحدة للقاء الرئيس « بوش » بعدَ اغتيالِ الشيخ أحمد ياسين بأيام ، واغتـــال شارون الدكتور عبد العزيز الرنتيسي بعدَ عودته من الولايات المتحدة ولقائه الرئيس بوش بأيام

ويقول كثيرون :

لو أنّ شارون سمع من بوش كلمة لوم أو عتاب على اغتيال أحمد ياسين لما أقدم على اغتيال الرنتيسي

بل إنّ رسالة بوش إلى شارون تعطيه الضوء الأخضر – كما يقولون – للاســتمرار في سياســة الاغتيــالات الاستباقية التي طبقها مجدّداً باغتيال الشيخ أحمد ياسين ، وهدَّدَ بتطبيقها أيضاً على الرئيس ياسر عرفــات ، والــشيخ حسن نصر الله ، وعدد من القادة الفلسطينيين الكبار ؛ فقد أكّد بوش في رسالته لشارون أنّ إســرائيل « ســتحتفظ بحقها في الدفاع عن نفسها ضدّ الإرهاب ، بما في ذلك اتخاذ إجراءات ضدّ المنظّمات الإرهابية »

وتتساءل الإدارة الأمريكية بعد ذلك ، وهي تتجاهل تجاهلَ العالِم ، مستغربةً كلَّ الاستغراب :

– لماذا يكرهنا الناس ؟!

وتريد –فيما تدّعي– أن تحارب الإرهاب ، ولا تريدُ أن تَرى أسبابَ الإرهاب ، ومنها ما تغرسُــه بيــدِها في النفوس ، وفي الحاضرِ والمستقبل ، من بذورِ الحقدِ والانتقامِ والإرهاب

إذا ذُكِرَ عبدُ العزيز الرنتيسي فأكثرُ الناس يستحضرون بحقٍّ صورةَ المناضلِ الصلْب ، والقائدِ الجريء ، والزعيمِ المؤَثِّر ؛ وقَلَّ من الناس من يعرفُ الرنتيسيَّ الإنسان

كان الرنتيسيُ أيضاً إنساناً يفيضُ صدرُه بأنبلِ المشاعر وأرقِّ المشاعر

كان ولداً بارّاً ، وزوجاً صالحاً ، وكان يحبُّ أسرتَه وأولادَه ، ويفكِّر في دنياهم وفي آخرتهم ، وفي سعادتهم في الدنيا والآخرة

وفي آخر ليلة قضاها بينهم : الليلة التي سبقت استشهادَه رحمه الله ، كان يفكّر معهم في زواج ولده محمد ، وفي ترتيب شؤونِ الزواج ، ويضعُ لذلك ما بقيَ له من تعويض من « الجامعة الإسلامية » بعد استقالته منها ليفـــرغ لمـــا كلّفه به إخوانُه من قيادةِ « حماس »

وآثرَ عبدُ العزيز دراسةَ الطبّ ، والاختصاصَ بطبِّ الأطفال ، لإحساسه بآلامِ شعبه ، وحاجاتِه الصحية ؛ ولحبِّه للأطفال ، وعطفِه عليهم ، ورحمتِه بهم . كان يعيش مع أبناءِ شعبه بكلِّيته : يفتح لهم سمعه ، ويفتح لهم قلبه ، ويقدّم لهم ، ويقدّم معهم ، كلَّ ما يستطيع من جهد ؛ فلا غَرْوَ إذا أحبّوه هذا الحبّ ، وأعزّوه هـــذا الإعـــزاز ، وسَـــالَتْ لاستشهادِهِ الدموع ، ودَمِيَت القلوب

لقد كان الرنتيسي ، الذي اغتاله شارون وعصابته ، إنساناً عظيماً ، و لم يكن مناضلاً عظيماً فحسب

وكان الرنتيسيُّ أيضاً كاتباً ، وكان شاعراً ، وكان خطيباً .. كان رحمه الله أمةً في فرد

وكان يحبُّ الحياةَ لنفسه ، ولبلادِه وشعبه ، ويعرف ما يمكنُ أن يتحقّق بها من خير الدنيا والآخرة ؛ ولكنه كان يحبُّ الحريةَ والكرامةَ والعدالةَ ، ويؤثرُها على الحياة ؛ وتطيبُ نفسُه بالشهادة في سبيل الله إذا اختار له الـــشهادةَ في سبيله



أكثرُ الناس في فلسطين والعراق وفي سائر البلاد العربية والإسلامية هم مثلُنا هنا :

يكرهون الخوفَ والعنف ، والموت ، وَيَتُوقُون إلى الأمنِ والسلامِ والحياة ؛ ولكنّ الإنسانَ الحرَّ الكريم يفـــضّلُ الموتَ الكريمَ على حياةِ الظلمِ والقهرِ والإذلال ، إن خيّرتَه بينَ الموت وبينَ حياةِ الظلمِ والقهرِ والإذلال ، و لم تفتح له أبوابَ الأملِ في العدالةِ والإنصاف والعيش الكريم ، والظفرِ الفعليِّ بالعدالةِ والإنصافِ والعيشِ الكريم

وهيهاتَ أن ينتصرَ الظلمُ والطغيانُ في نهايةِ المطاف ، مهما بلغَ من قوتِه وجبروتِه وشدّتِه وقسوته ، على إنسانٍ أو شعبٍ يؤمنُ بربِّه وبحقِّه ، ويؤثرُ الموتَ -بالفعلِ لا بمجرّدِ الشعاراتِ والكلام- علـــى القبـــولِ بـــالظلمِ والقهـــرِ والخضوعِ والخنوع ؛ ويرى الموت – إن كان على حقّ ، وكان يدافع عن حق – شهادةً تفتح له أبواب الجنة

أما آن للمجتمعِ الإنسانيِّ يا تُرى ، وللدولِ الكُبرى على الخصوص ، أن تَعِيَ بأنّ مـــشكلاتِ العـــالمِ الراهنـــةَ

والقادمة ، لا يمكن ولا يجوز أن تُحَلّ بالطائرات والصواريخ وألوان الإبادة والدمار الأخرى ؛ ففي ذلك قضاءٌ علـــى إنسانية الإنسان ، وسائرِ قِيَمِهِ ومُثُلِهِ العليا ، وعلى العالمِ كلِّه على الزمن

مفتاحُ حلِّ المشكلات الأصوبُ والأفضلُ والأنجعُ إنما هو الفهمُ والمشاركةُ الوجدانية ، والتعاطفُ الإنـــسانيّ ، والعدلُ والإنصافُ ، والتعاون على البرِّ والتقوى لا على الإثم والعدوان

إنـــّني وأنا إنسان مسلم يؤمن بالأخوّة الإنسانية ، وَيَنْشُدُ لسائر الناس الأمنَ والسلامَ والخيرَ ، ويكـــره الظلـــمَ والعنفَ والحرب .. أضمُّ صوتيَ الضعيفَ إلى كلِّ صوتٍ مخلص يدعو إلى تعاونٍ إنسانيٍّ صادق من أجلِ مناهضةِ الظلمِ والعنفِ والعدوان ، ونُصْرَةِ الحقِّ والعدلِ والإحسان ؛ ففي ذلك مرضاةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وخيرُ الإنسانيةِ والإنسان.